شُرُوح
كتاب

معالم في الطريق

لأبي الألباء منهدج حياة

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف © ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

١	مقدمة
١	عناصر المنهج
٣	الركن الأول في العقيدة الإسلامية
٤	المسلم يصوغ حياته وفق هذه القاعدة
٦	"لا إله إلا الله" قضية الحياة كلها
٨	أهمية هذه القاعدة في تحديد القضايا الأساسية في حقيقة هذا الدين
٩	طبيعة المجتمع المسلم
١٢	التصور الاعتقادي الإسلامي
١٣	منهج نشأة المجتمع المسلم
١٧	منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية
٢٠	منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية

لا إله إلا الله منهج حياة

مقدمة

نتحدث الآن عن فصل جديد بعنوان (لا إله إلا الله منهج حياة).. وهذا الفصل من أمتع فصول الكتاب، ورغم بساطته، سنلاحظ أنه يتحدث عن قضايا قد تكون مسموعة من قبل ومعروفة، ولكنه يتحدث عنها من زاوية جديدة، وبتقرير جديد أيضاً، ومنذ أن نقرأ العنوان "لا إله إلا الله منهج حياة" سنجد عنواناً -في ذاته- جديداً.. أو على الأقل جديداً على هذا العصر الذي نعيش فيه. وهذه الحقيقة التي يعبر عنها هذا العنوان كانت معلومة يقيناً عند الجيل الأول، وعند التابعين وتابعيهم، وعند صالحى هذه الأمة.. ولكن لا شك أن هذا المعنى غاب تماماً عن الأجيال الأخيرة التي غزتها أوروبا بفكرها المادي والعلماني، وأصبحت "لا إله إلا الله" كلمة خالية من المعنى، وخالية من المقتضى، وخالية من التأثير في حياة الإنسان.

وهذا المعنى.. حينما سمعناه أول مرة، وقرأناه أول مرة.. حينما قرأنا الكتاب وهو مازال مخطوطاً.. كان له رنين خاص، وكان له معنى وتذوق وطعم رائع. ولا شك أن قضية لا إله إلا الله ستظل هي القضية العظمى في حياة الإنسان، أو هكذا يجب أن تكون.

ونحن حينما نعيش هذه الحقيقة ونفهمها سيزداد تعلقنا بهذه الكلمة، ويزداد حبنا لها، ويزداد إعجابنا بهذه القضية العظمى، والتي هي أعظم القضايا، بل إنها القضية التي بُني عليها هذا الوجود كله. فإذا أضيف إليها هذا المعنى الجميل، والجاد؛ أنها منهج حياة.. ستصبح هذه القضية أكثر فاعلية في حسنا، وأكثر بدهة، وستعامل معها بصورة جديدة تجعلنا نفهم أن "لا إله إلا الله" لم تكن يوماً ما كلمة تقال، ولم تكن يوماً ما دعوة يدعيها الناس، ولكنها كانت دائماً منهج حياة متكامل.

عناصر المنهج

وإذا أردنا أن نحلل لفظة "منهج" لكي نتعرف عليها قبل أن ندخل في الموضوع؛ سنجد أن المنهج له عناصر معينة لا بد أن نتعرف عليها لكي ندرك الأبعاد التي تعنيها هذه الكلمة، ومن ثم نستطيع أن نفهم الموضوعات التي تحدث عنها الأستاذ سيد في هذا الفصل، فنفهمها على ضوء ما نقول عن هذه العناصر إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن نوجز عناصر المنهج -أي منهج- في أنه لا بد أن يكون قائماً على تصور.. أو فكرة.. أو فلسفة. فلا بد أن يتحدد لأي منهج تصور خاص.

والعنصر الثاني؛ هو الطريقة التي يتم بها هذا التصور، أو التي تحقق هذا التصور في واقع الحياة.

العنصر الثالث؛ أن يكون الهدف واضحاً من هذا المنهج، لكي يظل الهدف دائماً في أفق الرؤية، يسعى إليه الإنسان دون أن ينحرف عنه بصورة من الصور.

العنصر الرابع؛ هو الوسائل التي يتحقق بها هذا الهدف، ويتحقق بها هذا التصور، وتتحقق بها هذه الصورة لهذا المنهج.

العنصر الخامس؛ هو السلوك الذي ينبثق أو ينتج عن هذا المنهج أو هذا التصور.

والعنصر الأخير؛ هو المشاعر والتذوقات والطعوم التي تنتج من الحياة في هذا التصور، والتي تشكل مشاعر الإنسان وتذوقاته في الطريق الذي يسير فيه.

هذه العناصر نستطيع أن نعطيها بُعداً آخر، أو نترجمها ترجمة أخرى تزيد الصورة وضوحاً..

فالتصور يمكن أن نترجمه بأنه رؤية للحياة؛ كيف يرى الإنسان الحياة من خلال هذا المنهج؟ ولا شك أن المناهج منذ أن وُجدت الحياة البشرية كثيرة. وكل منهج يعطي صورة ورؤية معينة لطريقة حياة الإنسان وهو يدب على هذه الأرض، وما يتصل بهذا الإنسان من مظاهر الوجود التي تحيط به، هذه الطريقة التي يمكن أن نعبر عنها بتحقيق هذا التصور في عالم الواقع.. كيف يتحقق هذا التصور، وما هي صورة هذا التحقق.

والهدف لا بد أن يكون محدداً، فبالنسبة للإنسان هل هو يعمل من أجل نفسه أم من أجل الآخرين؟ من أجل الله أم من أجل لا شيء؟ كما يحدث في مذاهب العبثية واللامعقول وغيرها، لا بد أن يكون الهدف متجهاً إلى نقطة واضحة ومحددة.

والوسيلة يمكن أن نعبر عنها بالوسائل التي تؤدي إلى أي هدف؛ سواء كانت هذه الوسيلة علماً أو تناصحاً أو إخلاصاً أو مهارة، فهناك وسائل متعددة يتبعها كل منهج حسب طبيعته ولونه.

والسلوك إنما هو اصطباغ بذلك المنهج الذي اختاره الإنسان لنفسه، فالسلوك هو ترجمة وتعبير عن الصبغة التي يريد هذا المنهج ليصطبغ بها الإنسان، ولا شك أن كل منهج يصبغ أهله بصبغته، ونستطيع أن نعرف المنهج من خلال سلوك أتباعه، ونتوقع سلوك الأتباع من خلال المنهج.

وكذلك الشعور والتذوق، لا بد أن يحدث من خلال هذا كله، لا بد أن تتكوّن مشاعر خاصة يقتضيها هذا المنهج؛ سواء كان حباً أو كراهية، تجرداً أو أنانية، عداً أو وفاقاً. فالمنهج يخلق شعوراً، ويوجد مشاعر وتذوقات لا بد أن نفهمها من خلال هذه العناصر.

فأي منهج هذه عناصره، وهذه معانيه التي ينبغي أن تكون محددة في حياتنا بالنسبة لهذا الدين.

وإذا كانت العناصر واضحة بهذا الشكل؛ أنها تصور، وطريقة، وهدف، ووسيلة، وسلوك، ومشاعر وتذوقات..

فإننا إذا جننا للإسلام من خلال قراءتنا لهذا الفصل سنستطيع أن نتناول هذه العناصر، أو تبدو لنا هذه العناصر من خلال العرض الرائع في هذا الفصل القصير.

وأى إنسان -حينما يختار منهجاً معيناً- فلا بد أن يكون مستعداً للتواؤم مع هذا المنهج، والإخلاص له. وأى إنسان يختار منهجاً، أو يختار هدفاً، أو يختار طريقة، ثم لا يكون صادقاً معها فإنه بالتأكيد لن يتشكل بها، ولن تصبح منهجاً لحياته كما يزعم وكما يدعي.

والإسلام -كأى منهج- يقتضي من أتباعه أن يكونوا على درجة كبيرة من الاقتناع، ومن الإخلاص والتجرد، ومن الرغبة والشوق لأن يعيشوا بهذا المنهج، ولذلك نجد أن دعاوى كثيرة يكذبها سلوك الإنسان الواقعي في الحياة. فليس من السهل أن يكون الإنسان شاردًا ويدعي الاستقامة، ومنحرفًا ويدعي الالتزام. ولا شك أن هذا التناقض يعني شيئاً واحداً؛ أنه ليس هناك صدق ولا اقتناع ولا إخلاص مع هذا الهدف.. أو مع هذا المنهج.

وعندما يكون هذا المنهج منهجاً بشرياً، أو منهجاً من صناعة إنسان، فقد يُفهم أن الناس قد يكون لهم ظاهر وباطن، وأن الصدق والإخلاص والتجرد قضية لا تكون جوهرية في اعتناق المذاهب البشرية، لأنهم بشر يتعاملون معاً، ولأنهم يجرون وراء مصالحهم، وبالتالي قد يُفهم معنى أن يكون هناك تناقض في المناهج البشرية.

وكل المناهج البشرية التي ليست هي منهج الله، نقول عنها أنها -يقيناً- مناهج جاهلية. ومن طبيعة الجاهلية -كما قلنا قبل ذلك- عدم الصدق، وعدم التوافق مع الحق. فمن الطبيعي أن نجد هذا التناقض في حياة الجاهلية، فنجدهم يرفعون رايات الحرية ولا يكونون كذلك، ويرفعون رايات التقدم ولا يكونون مترقيين في الحقيقة، ويرفعون رايات الإحسان في العمل، وغيرها من الرايات ولا يكونون كذلك، لأن الأمر كله عبارة عن شعارات، ولكنها شعارات قد تتعارض مع المصالح التي يقررها أصحابها لأنفسهم دون مرجع يهديهم إلى الصواب وإلى الحق، فلا يلتزمون بها.

ولكن الأمر مختلف في الإسلام. فالمنهج ليس منهجاً بشرياً.. المنهج منهج إله، والتعامل هو تعامل مع إله، وليس تعاملًا مع بشر، ولذا يتغير إحساس الإنسان بالمنهج ومتطلبات المنهج.. فتصبح تلك المتطلبات مختلفة تماماً عما يحدث في الجاهلية. ولذلك يكون معيياً جداً أن يدعي الإنسان الإيمان بالله والإيمان بالحق ثم لا يكون مستقيماً عليه، وفي منهج الله الأمر أكبر وأخطر مما يظن الناس، فلا يمكن في منهج الله أن يدعي الناس دعوة ثم يتفلتون منها حسب أهوائهم ويظلون تحت اسم هذه الدعوة. فهذا مع منهج الله لا يُقبل أبداً، لأن لذلك آثاره الخطرة على حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

الركن الأول في العقيدة الإسلامية

في أول هذا الفصل يقول الأستاذ سيد رحمه الله:

"العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة: أن لا إله إلا الله، والتلقي عن رسول الله ﷺ -في كيفية هذه العبودية- هي شطرها الثاني، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله."

ونلاحظ أن التركيز هنا على العبودية.. العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية، وكان من الممكن أن يتحدث عن التوحيد باعتباره هو الشطر الأول في قضية لا إله إلا الله، ولكن لأنه سيتحدث عن منهج وعن سلوك وعن حياة

فكان التركيز على الجانب البشري من المعادلة، وهي موقف البشر من الله، فلذلك تصبغ العبودية هي القضية الأنسب هنا أن نتحدث عنها باعتبارها منهج الحياة بالنسبة للإنسان، ومن خلالها تتحقق حقيقة التوحيد أيضاً. فالتعبير هنا مقصود؛ أن العبودية لله وحده هي شطر ركنه الأول، لصلتها بالمنهج، ولتخصصها في الموضوع الذي يتحدث فيه هذا الفصل.

"والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان، وأركان الإسلام، إنما هي مقتضى لها.."

وهذه قضية مهمة جداً لا نريد أن نتعامل معها بالفكر ولا بالعقل فقط، وإنما نريد أن نتعامل معها أولاً بالقلب الحي الذي يعيش دائماً منفصلاً بالحقيقة. فقاعدة لا إله إلا الله لا شك هي أساس البناء كله، وبقدر وضوح هذه القضية، وبقدر عمقها، وبقدر حرارتها، وبقدر صفائها ونقاؤها يتحقق المنهج في حياة الإنسان. ولذلك كان الالتزام والاتباع والعمل مقياساً دقيقاً جداً لمقام وحقيقة الإيمان في القلوب ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] لأن الاتباع والالتزام والسلوك السوي هنا يتبع الحقيقة، وهو الذي يصدقها. فلذلك كانت أي مفارقة، وأي مجانبة وتضاد بين القول وبين العمل من أخطر سمات الكفر أو النفاق والعياذ بالله.. ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كِبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣-٢]. أما القلب المؤمن المسلم فهو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الإسلام وأعماله إنما هو مقتضى لهذه القاعدة؛ من أكبر وأخطر الأمور إلى أقلها؛ فالإيمان بالله، ومعرفة الله، والحب لله، والإيمان به، أو الإيمان بكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أو الصلاة والصيام والزكاة والحج، أو الأحكام التي وردت في شريعة الإسلام، حتى ولو كانت سنناً عملية صغيرة تبدو بسيطة في أهميتها وفي قيمتها، لكنها في الحقيقة هي أيضاً مقتضى لا إله إلا الله، لأن الإنسان لا يأكل يمينه، أو لا يدخل الحمام برجله اليسرى إلا من خلال أنه يراقب الله عز وجل، وأنه يتأسى برسول الله ﷺ، لأن هذا الرسول هو المعتمد من قبل الإله الواحد، الذي شهد أن لا إله إلا هو. فكل شيء مهما صغر هو مرتبط ومشودود إلى ذلك الأصل الكبير؛ وهو لا إله إلا الله. ومن ثم تصبغ قضية لا إله إلا الله المعروضة في هذا الفصل، من جانب السلوك، ومن جانب الواقع الذي يعيشه الإنسان الذي يعيش لا إله إلا إله، أو الذي يدعي لا إله إلا الله.. قضية ذات خطر كبير.

المسلم يصوغ حياته وفق هذه القاعدة

ويهمنا نحن الدعاة والرواد الذين عرفوا لا إله إلا الله أن تكون حياتنا واضحة التمثيل ومعبرة كل التعبير عن هذه الحقيقة. فإذا وجدنا أن الدعاة والرواد لا يلتزمون هذه الحقيقة في كل سلوكياتهم، وفي كل اهتماماتهم، وفي كل مجالات حياتهم، فهؤلاء في الحقيقة يُنقصون من قدر أنفسهم بقدر ما ينقص هذا التمثيل وهذه الترجمة لحقيقة لا إله إلا الله. وهذا يبدو في كل سلوكياتنا؛ في تعاملنا مع أنفسنا، ومع أعمالنا، وفي اختيارنا لأعمالنا، وفي تعاملنا مع الأهل ومع الأولاد ومع الجيران، ومع الأعداء والأولياء، وفي مسكننا، وفي حياتنا.. لا بد أن نكون صورة واضحة لهذه الحقيقة. فإذا تخلفت الصورة عن الدعوة فإن هناك خطراً كبيراً جداً على حياتنا. ولا شك أن هذا الأمر قد يكون باهتاً في حياتنا من خلال السعي في خضم هذه الحياة

التي تنسينا في بعض الأحيان، أو في كثير منها، أننا نعيش لحقيقة كبرى، وإن كنا نقول باللسان كلاماً طيباً، ولكن في الحقيقة لا نجعل "لا إله إلا الله" هي القاعدة التي تشع على سلوكياتنا واختياراتنا.

فحينما يختار الإنسان بيتاً يسكن فيه لا بد أن يكون هذا الاختيار مبنياً على قضية لا إله إلا الله. وقد يسمع إنسان هذا الكلام ويتعجب: ما هي صلة "لا إله إلا الله" باختيار بيت لأسكن فيه؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول: إنه لا بد أن تبحث أولاً: هذا البيت الذي ستسكن فيه.. هل هو في حدود قدراتك أو أنك مسرف أو مقتر؟ هل ستختار البيت للتظاهر؟ هذا البيت هل أخذته بصورة تحقق إسلامك في داخل البيت؟ أم أن هذا البيت بنظامه الداخلي سيعوق حركتك وحركة أهلك كمسلم داخل البيت؟ البيوت مفتحة الأبواب، أو المصممة بدون حواجز بين الحجرات لا تنفع للمسلمين لأنها تظهر العورات.. هذا البيت هل هو في منطقة ستعيني على أن أتربى وأربي نفسي وأربي أهلي وأربي أولادي، أم أنني اخترت مسكناً في بيئة ستفسد علي كل ما أصنعه من تربية للأولاد؟ فحينما أختار كمسلم هذا البيت الذي أسكن فيه، يجب أن يكون في بؤرة اهتمامي أن هذا البيت لا بد أن يتوافق مع الهدف الذي أسعى إليه. وأن لا إله إلا الله تسري في دمي وفي وجداني، وتملاً أفق حياتي.. بحيث تجعلني دائماً دائراً في بؤرتها.. فإن لم أكن كذلك سوف لا أهتم، وسأختار بيتاً في أي مكان وبأي صورة دون أن أفكر أن هذا البيت سيكون عائقاً بعد قليل بيني وبين هذا الهدف العظيم الذي أريده.

حينما أختار عملاً أيضاً.. لا بد أن أفكر؛ هل هذا العمل سيعيني على تحقيق أهدافي في الحياة، أم أنه سيبعدني عن أهدافي؟ هل سأعيش من خلاله مع أناس يتعبونني أو يبعدونني عن أهدافي وعن اهتماماتي؟ هل سيأخذ وقتاً من حياتي بحيث لا يبقى لي وقت أفكر فيه وأربي فيه نفسي وأسرتي وأعيش مع ربي.. هل هذا العمل غير متلبس بحرام أو بتقصير أو بتعاملات غير كريمة، أو بمظاهر إباحية.. فقبل أن أدخل في أي عمل لا بد أن أنظر هل سيحقق لي "لا إله إلا الله"..

حينما أريد أن أتزوج.. حينما أريد أن أدخل ابني مدرسة.. كل هذه المسائل تحتاج مني أن أربطها بلا إله إلا الله، فالقضية أكبر من أن تكون عقيدة مجردة تدخل رأسي ثم أصبح بها مسلماً حينما أتلفظ بها وينتهي الأمر.. القضية منهج.. منهج حياة، لا بد أن ندرك مدلول كلمة "منهج حياة".

فكلنا ينبغي أن يراجع واقعه، هل واقعه.. وهل زواجه، وأولاده، ومدارسهم، والبيت الذي يسكن فيه، والعمل الذي يعمل وعدد ساعات العمل، والملابس التي يلبسها، وتعامله مع الجيران.. هل كل هذا يتمشى مع تحقيق قضية "لا إله إلا الله" في حياته التي خلقت من أجلها؟ ولا شك أنها قضية كبيرة، إذا غفلنا عنها سنكون مسلمين نظرياً، وقد قلنا سابقاً أن المسلم النظري لا وجود له في الحقيقة، لأنه حينما يكون مسلماً نظرياً فهو في الحقيقة جزء لا يتجزأ من جسد الجاهلية، يعطيها كفاءاته وإيجابياته، وكل شيء، بينما هو يتلفظ فقط بكلمة الإسلام، ويُحسب على الإسلام، لكنه في الحقيقة عنصر مقو للجاهلية.

لكنه حينما يعيش بحقيقة لا إله إلا الله فإن الأمر يختلف. يصبح الإنسان يختار اختيارات لا يفهمها إلا المسلم الذي يعيش معه في نفس الاهتمام وفي نفس الدائرة، لكن الآخرين يعتبرون هذا جنوناً، أو خطأً.

هذه هي قاعدة "لا إله إلا الله" بشطريها؛ شطر لا إله إلا الله التي تعني التوحيد والعبودية الكاملة لله، والشطر الثاني وهو شهادة أن محمداً رسول الله، والتي تعني أنه المصدر المعتمد، الذي اعتمده الله ليكون رائدنا في سعينا إليه. فلا بد أن تكون هذه القضية هي شغلنا الشاغل؛ لو كان رسول الله ﷺ مكاني كيف كان سيتصرف؟ وبمثل تصرفه أتصرف. لو كان رسول الله ﷺ مكاني هل سيختار هذه الزوجة؟ أو سيختار هذا العمل؟ ما الذي كان سيفعله؟ حتى أتلبس بهذه الشخصية، وأعيش من خلالها.. لأنه هو الشخص الذي اعتمده الله، وجعله نموذجاً أعرف الإسلام من خلاله، وأعرف الحق من خلاله.

والشرك في معانيه البسيطة هو أن تجعل مع الله إلهاً آخر؛ سواء كان في الخلق، أو في الاتباع، أو في التحاكم. فحينما يتضح الأمر هكذا نجد أننا حينما يكون هوانا هو الذي يسيرنا، واختياراتنا ومذقاتنا هي التي تسيرنا، فنحن في الحقيقة قد ارتكبنا نوعاً ما من الشرك، لأننا جعلنا مع الله مصدراً آخر نتلقى منه حياتنا.

فالقضية قضية منهج. نريد أن نفهم المنهج، ونريد أن نعيش بمشاعر معينة، نفهم ونعي معنى كلمة "منهج"، حتى نصبح فعلاً صادقين حينما نقول "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" ..

"والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلماً.."

وهذه قضية أيضاً تمثل حقيقة كبيرة، وهي حقيقة بديهية عند من يعرف حقيقة "لا إله إلا الله" بكل أبعادها، فالمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها، قاعدة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" بشطريها، وما يترتب على هذه القاعدة من مقتضيات، فإذا لم تتمثل في مجتمع فلا يمكن أن يكون هذا المجتمع مسلماً. وبذلك لا نجد ذلك الجدل الرخيص السخيف الذي يثار اليوم. فعندما يكون المجتمع كله يسير في اتجاهٍ معادٍ تماماً لكل ما جاء به الرسول ﷺ أو ما أمرنا به الله، ثم يظل الجدل يثار حول هذا المجتمع لماذا لا يكون مجتمعاً مسلماً.. ونحن نقول لهؤلاء: كيف يكون ذلك؟ وهذه الشهادة.. وهذه القاعدة بشطريها لا تتحقق في هذا المجتمع في أي صورة من الصور؟

"لا إله إلا الله" قضية الحياة كلها

"ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة.."

وهذا لا يأتي أبداً بالادعاء ولا بالأمانى، ولا بالرجبات.. وإنما يأتي بالتحقيق.. تحقيق العمل، وتحقيق الانبثاق من قضية لا إله إلا الله.. من هذه القاعدة بشطريها.

"كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة، أو قامت على قاعدة أخرى معها، أو عدة قواعد أجنبية عنها.."

فهذا المفهوم الرائع؛ أن تصيح لا إله إلا الله هي قضية الحياة كلها.. هي التي تشكل وتبهر الحياة كلها، بحيث لا يصح هناك مجال للجدل حول "لا إله إلا الله"؛ هل هي كلمة باللسان أم لا، وهل لها مقتضيات أم لا.. فهذه قضايا رخيصة لا ينشغل بها إلا الأفاقون الذين يعملون في مجال الدين وليسوا منه في شيء، لأن القضية أكبر، والله سبحانه وتعالى أعظم من ألا نفهم عنه هذه القضية. فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تعني القاعدة التي يقوم عليها منهج كامل لحياة الأمة المسلمة بحذافيرها، بكل كبيرة وصغيرة.. فليس هناك شيء يند عن هذه القاعدة العظمى التي تقوم عليها حياة الأفراد، وتقوم عليها حياة المجتمع..

يقول الله عز وجل ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].. فأداة الحصر والقصر هنا مقصودة، لكيلا تدع هناك مجالاً لتصور آخر أو احتمال آخر.. إن الحكم إلا لله.. فالحكم قضية واضحة.. فلا يجوز أن يكون هناك حكم لغير الله ولا حكم إلا الله سبحانه وتعالى في كل شيء، وهذه هي قضية التوحيد ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾. وهذا يتحقق من خلال أن يكون الحكم لله وحده، والحاكمة لله وحده.. فيكون عندها التوحيد الحق.. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.. فهو أمر الله سبحانه وتعالى، وليس أمر أحد من البشر.. فليس الذي يقرر ذلك هو أبا بكر، وليس ابن تيمية، وليس سيد قطب، وليس أحداً من البشر أياً ما كان.. ولكنه الله الذي أمر وجزم ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.. فالأمر من الله، وليس من اختيار البشر، لكي يكون لهم اختيار في أن يعبدوه -سبحانه- أو لا يعبدوه، أو أن يحكموه أو لا يحكموه.

فإذا حكموا بأمر الله وحده، وجعلوا الحكم لله وحده، فقد نفذوا أمر الله؛ ألا يعبدوا إلا إياه، فالعبادة هنا هي المنهج؛ منهج الحياة كلها.. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.. تحقيقاً للتوحيد الذي يدعيه المسلم أو الموحد.. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.. فهذا هو الدين، وغيره لا يكون ديناً مقبولاً عند الله.

وحيثما يكون الحكم لله وحده في كل شيء، صغير أو كبير. وحيثما تكون العبادة لله وحده بأمر من الله، واستجابة لأمر الله، وليس استجابة لأمر أحد من البشر، يكون ذلك هو الدين القيم، ولا دين قيم إلا دين الله عز وجل، فيصبح المنهج قضية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بقضية العقيدة.. بقضية الألوهية.. بقضية التوحيد، فهي ليست قضية كمالية، ولا قضية اختيارية، ولا قضية جدلية.. وإنما هي قضية الحكم فيها ليس لغير الله.. هو الذي أمر ألا نعبد إلا إياه.. فلا تكون صورة من حياتنا إلا والعبادة متمثلة فيها.. في كل شيء..

يقول الله عز وجل ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].. فالله هو الذي يقول، والله هو الذي يقرر أن طاعتنا لرسوله ﷺ هي طاعة له، ومن ثم يصبح التأسى برسول الله ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، ويصبح استفتاء رسول الله ﷺ في كل شيء هو منهج حياة.. وليس عقيدة فقط، وإنما هو منهج حياة، هو سلوك وشعور وتذوق ومرجع وهدف ووسيلة وطريقة، لا بد أن نعيش الحقيقة بحرارتها، ونعيشها بمشاعرنا الساخنة باستمرار، لأن الحياة قصيرة، وقد يداهنا الموت في أي وقت، لا بد أن نعيش هذه الحقيقة لحظتنا هذه لكي نعيشها ساخنة دائماً، وحيثما تكون هذه المشاعر حارة وساخنة ستلين الصخر الذي في قلوبنا، وتلين السدود التي تمنعنا أن نعيش مع الله، وتلين الرغبات الشاردة التي تجعلنا لا نعيش لله عز وجل، فليراجع كل

واحد منا نفسه، ويراجع اختياراته، ويراجع عمله، ويراجع أهله، وأولاده، ورغباته، وطموحاته، وسلوكياته، واقتصادياته، هل هي فعلاً في مجموعها تحقق له تلك الشهادة بشطريها؟ أم أن الشهادة بشطريها في وادٍ وسلوكه في وادٍ آخر؟ والله عز وجل لا يقبل الشرك.. لا يقبل أن يُعطى جزءاً من الحق، لا نصفه ولا ثلثيه ولا حتى أغلبه، إما أن يكون الأمر كله لله.. أن تكون العبادة كلها لله، وإلا فلا.. يقول الله في الحديث القدسي (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)^١ أو كما قال في رواية أخرى (فهو للذي أشرك وأنا منه بريء)^٢.. فالقضية خطيرة..

فقضية اختيارنا لأي شيء، صغير أو كبير، له مساس بقضية الشرك وقضية التوحيد. فلا تحسبوا الأمر بسيطاً، الأمر أكبر مما تتصورون.. إنها قضية الحياة الدنيا، وقضية الإنسان، الذي خلق لأمر ضخم وكبير، وما كان الله العظيم الجليل أن يخلق هذه الحياة بهذه التفاهة وبهذه البساطة وبهذه السخافة التي يتصورها الناس، والتي نقع فيها نحن في بعض الأحيان، حينما نغفل، وحينما نتضخم عندنا طموحاتنا الدنيوية فتعمى أبصارنا عن الحقيقة العظمى.

نريد أن نعيش الحقيقة، ونريد أن نعيش مع الله سبحانه وتعالى، فنصدق في كل ما يقول، فلا نقول إننا نؤمن به ثم لا نصدق، وعدم التصديق لا يأتي بوعي، ولا يأتي من خلال التقرير بأننا لا نصدق، ولكنه يأتي عن طريق تخالف السلوك مع العمل، أو تخالف الرجاء والخوف مع العقيدة.. عندما أخاف على رزقي وأبغى سبيلاً للرزق يعطيني ويعدني عن لا إله إلا الله فهذا نوع من الشرك الخفي، لأنني لا أصدق أن رزقي سيأتي، وأنه لن أظلم منه شيئاً.. ثم إن هذا الرزق يُبارك فيه حينما تقدم أمر الله على أمره، وحينما تتوكل على الله.. سيبارك لك في هذا الرزق، وحينما يغلبني خوفي على الرزق فيجعلني أنسى حقوق الله وأتساهل فيها بينما أهتم اهتماماً كبيراً بأمر رزقي أو أمر أولادي.. فهذا شرك خفي، له مساس بالإيمان ومساس بالتوحيد، لا بد أن أتعلم أن أصدق ربي، وأن أعرف أن رزقه لن يفوتني، وأن أجله لن يفلتني، وأنني حينما أتوكل سأكسب من خير الله أكثر مما أعمله بنفسي. وما أرتب له بنفسه يمكن أن يخيب، وما يأتيني بترتيب الله هو ما يكون ناجحاً.. كثيراً ما يرتب الإنسان أموراً لنفسه ثم تضيق بسبب بسيط جداً، وبعض الأحيان يرى أموراً معقدة جداً ثم يجدها سهلة جداً لأن الله يريدنا.. إذا توكلنا على الله حق توكله فإن الأمور ستسير أكثر ما تكون بركة، وأكثر ما تكون سداداً وتوفيقاً..

أهمية هذه القاعدة في تحديد القضايا الأساسية في حقيقة هذا

الدين

"هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين،

وفي حركته الواقعية كذلك.."

١ رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

٢ أخرجه ابن حبان.

ويقصد بالتقرير الموجز المطلق الحاسم الحديث عن أن العبودية لله وحده هو شطر الركن الأول للعقيدة الإسلامية، وتقديره أن شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها. هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم؛ سواء في شرح هذه القضية، أو في التقرير الحاسم في قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].. هذا التقرير يفيدنا في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين.

والتقرير الحق والمطلق هو تقرير الله وليس تقرير البشر، وحينما يقرر أي بشر شيئاً إذا لم يكن مستمداً من تقرير الله فلا قيمة له، فلا شك أن التقرير الذي فصله ونوضحه هو تقرير من خلال ما أمر به الله وما قرره سبحانه وتعالى. هذا التقرير المطلق الحاسم

"يفيدنا أولاً في تحديد "طبيعة المجتمع المسلم". ويفيدنا ثانياً في تحديد "منهج نشأة المجتمع المسلم". ويفيدنا ثالثاً في تحديد "منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية". ويفيدنا رابعاً في تحديد "منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية". وهي قضايا أساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً.."

وهذه القضايا التي تعدد، وقد يحسبها بعض الناس -حتى من العاملين في الحركة الإسلامية- أنها نوع من الترف العقلي، ونوع من المبالغة في المعاملات الفكرية.. بينما الحق أن الأمر ليس كذلك، فالقضية لأنها قضية كبيرة وخطيرة وعظيمة فإنها تمس أموراً عظيمة أيضاً. ونحن في عصر غربة الإسلام الآن، نحتاج إلى أن نستوضح هذه الحقائق، لأنها هي التي تشكل حركتنا، وحياتنا مع الله، والتي تضمن لنا العودة إلى حظيرة الإيمان بعد أن تُهنا كثيراً في التيه الطويل العريض الذي ساقتنا إليه الجاهلية.

طبيعة المجتمع المسلم

والأمر الأول: "أن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله.. هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله."

وتكرار قضية شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مقصودة في هذا الفصل، لكي ندرك كيف أن هذه الشهادة بشطريها هي أعلى شهادة في حياتنا، وأن المطلوب منا أن ندركها بكل وجوهها، وبكل أعماقها وأبعادها، حتى نعيشها حياة حقيقية.

وكما يقول؛ إن الموضوع الأول الذي يفيدنا في هذا التقرير الموجز هو تحديد طبيعة المجتمع المسلم. فالمجتمع المسلم سمته الأولى التي تميز هذه الطبيعة أنه يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في الأمر كله. إن روح العبودية لله وحده هي التي تشيع في أرجاء هذا المجتمع، وفي حنايا النفس، وفي تلوين الغايات والأهداف، وفي تشكيل الوسائل والأساليب.. وهو الذي يتمثل في الذوق العام بمعنى الحياة الإنسانية.. هكذا نفهم معنى أن سمة هذا المجتمع أو السمة الأولى المميزة لهذا المجتمع هي العبودية لله، وأنه يقوم على قاعدة العبودية، ونفهم أن هذا ليس كلاماً مجرداً ولا نظرياً، وإنما هو روح تشيع في أرجاء هذا

المجتمع، وفي كل حنايا النفس، وفي كل تناول للحياة في كل أعمالها وأساليبها.. هذا الأمر الذي كان يعيشه الصحابة حياة حقيقية وعميقة.. كنا نرى أن العبودية هي منطقتهم الذي يعيشون به، ويتحدثون من خلاله، ويتصرفون من خلاله، وكانوا يقيسون كل صغيرة وكبيرة من حياتهم ويلونونها بهذه العبودية، هذا التخصص في إدراك العبودية كان تخصص الصحابة -رضي الله عنهم- وكانوا -ولا شك- يتميزون بها. وكل إنسان يريد أن يكون على طريقهم لا بد أن يدرك هذا المعنى، بأن يعيشه حقيقة.. يعيش عابداً بروح العبودية، وملتبساً بمعنى العبودية الكامل الشامل الكبير.. وهذا هو الذي يجعل الإنسان يدرك هذا مذاق الرائع الجميل..

"وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء.

فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ وَكَلِمَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ الدِّينُ وَأَصِحَّ أَلْفَعْبَرِ اللَّهُ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥١-٥٢]."

والوحدانية -كما نكرر دائماً- ليس في أن نعتقد أن الله خالق فقط، ولا أن الله رازق فقط، وإنما في أن نعتقد أن السلطة الكاملة المهيمنة على كل شيء في هذا الوجود هي لله وحده.. هذا هو التوحيد.

ليس التوحيد بأن تعترف بأن الله موجود.. هذا يعترف به الكافر والمؤمن سواء، لكن المؤمن يجعل السلطان كله لله في كل شيء، صغيراً كان أم كبيراً، فيما يعلم وفيما لا يعلم، ويحس أن حياته تتشكل بهذا المعنى الرائع الجميل..

"ليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله -معه أو من دونه-: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]."

وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله، عن الطريق الذي بَلَّغَنَا اللهُ بِهِ، وهو رسول الله ﷺ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]. ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]."

فهذا الشرح بهذا المعنى يجعل الجدل حول إسلام الناس أو كفرهم حينما يقولون لا إله إلا الله ويعتقدون العقيدة.. هل يكفي هذا فيصبحون مسلمين، حتى ولو لم يؤدوا الشعائر، ولو لم يؤدوا الشرائع؟ يصبح هذا الجدل سخفاً.. وكذلك الذين يقفون عند الشعائر، ويقولون: المسلم هو من يقوم بالعبادات، والمجتمع المسلم هو الذي تظهر فيه العبادات أيضاً.. فيقولون كلاماً ناقصاً منحرفاً عن الحقيقة.. وكذلك الذين يعتقدون أن الشرائع هي حدود وحلال فقط، بينما يتجاهلون القيم والأخلاق التي دعانا إليها الرسول ﷺ. وهؤلاء أيضاً لا يعرفون معنى لا إله إلا الله.. فقضية العبودية تشمل كل ذلك، وإذا نقص أمر من هذا فلا قيمة للباقي بمفرده..

"هذا هو المجتمع المسلم. المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفرادهم وتصوراتهم، كما تتمثل في شعائرهم وعبادتهم، كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم.. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود. لتخلف ركنه الأول، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله."

ربطاً دائماً بين هذه الشهادة، وبين الواقع، وبين السلوك، وبين التشريع والشعائر والاعتقاد.. هذا الكلام الواضح البسيط يعيدنا كثيراً عن هذه المعضلات الفقهية والصيغ القانونية التي نجدها في كتابات بعض من يكتبون عن قضية الإسلام. ونجد في بعض الأحيان -سواء في الكتابات القديمة أو الحديثة- افتراضات غريبة، تصل بقضية الاعتقاد أو قضية وضع الناس أو غيرها من القضايا إلى أمور عجيبة وغير واقعية.. حينما نفتح بعض الكتب التي تتكلم عن العقائد نجدهم يفترضون افتراضات عجيبة، ويقفون عندها، ويتحدثون عنها كما لو كانت قضية يمكن أصلاً أن تردّ على ذهن مؤمن صحيح الإيمان، اقرأ في كتاب ككتاب ابن حزم عن الملل والنحل تجده يقول: لو أن إنساناً ظن الله جسماً فهل يكفر أو لا يكفر، وتصبح هذه قضية، وينقسم عليها هؤلاء العلماء؛ يكفر أم لا يكفر. والمؤمن الجاد والواضح لا يمكن أن تخطر بباله هذه القضية أصلاً.

وحينما تصبح قضية الصفات قضية يترتب عليها إشكال ضخم، ويترتب عليها تكفير بعض فرق المسلمين لأنهم اختلفوا في قضية الصفات؛ هل أن لله يداً أو وجهاً على الحقيقة أم أنها تعبيرات مجازية يقصد بها القهر أو العلو.. قضية نجدها لم تثر في عصر الصحابة، لأنهم كانوا منشغلين بلب القضية وبجوهرها. ولكن عندما بُعد الناس عن اللب بدأوا يتراشقون بهذه الآراء التي تجفف منابع اليقين، وتشكك وتزلزل مشاعر الإنسان الإيمانية.. فيحدث الاختلاف في الاعتقاد أنه لا بد من الإيمان أن لله يداً ولكنها ليست كأيدينا، أو أن اليد معناه القهر والسلطة.. وأياً كانت قيمة الكلام الذي يقال.. ولكن.. لماذا ندخل في هذه القضايا التي ينبغي ألا تعبر إلى عقولنا؟ وحتى لو أراد المشككون وأصحاب الديانات الأخرى أن ينقلوا لنا ما عندهم من تصورات وانحرافات حول هذه القضايا، فكان ينبغي على المسلمين أن يردوهم بالمنطق القرآني؛ أن هذه القضايا لا ينبغي أن تكون محل تفكير، وأن يضربوا بيد من حديد على كل من يجزؤ أن يشيع في المجتمع المسلم هذه القضايا التي تُشغل الناس عن جوهر العبودية لله عز وجل.. صفة العلو صفة قامت عليها وقعدت آراء العلماء.. لماذا؟ لا شك أن الله هو الأعلى بكل معاني العلو.. لكن لا يمكن أن ندخل قضية الزمان والمكان والشكل في هذه القضية، الله أعمق وأعظم في قلب المؤمن من أن يقارنه بهذه الأمور الصغيرة. فتصبح تلك الأمور قضايا تُشغل العقل وتُتلف القلب وتُغشي البصر عن رؤية الحق، وتفسد الذوق الإيماني.

ولكن حينما نفهم الإسلام هكذا من كلمات رب العالمين، وبهذا الوضوح الرائع، فهذا يجعلنا نعيش فعلاً معنى العبودية، وتذوق روح العبودية، دون أن ننحرف إلى أي مشغلة يتصور أصحابها أنها تزيدنا إيماناً، أو تزيدنا معرفة بالله.

فلا شك أن هذا الفصل بتعبيراته البسيطة وبتقاريراته الحاسمة يرفع مستوى إدراكنا وتناولنا للحقائق الإسلامية إلى مستوى يتميز بصفاء الرؤية ونقاء النفس وحكمة الفكر وصدق التوجه، وتجعل الأمور رائعة وجميلة وبسيطة وواضحة ويقينية، ونأخذها غضة طرية كما أخذها صحابة الرسول حينما كانوا يسمعون القرآن.

فهذا الفصل في الحقيقة من الجمال، بحيث يحسب الإنسان أنه يرفع مستوى إدراكنا وتناولنا لهذه الحقائق الإسلامية، ولا يهمننا أن ينشغل الآخرون بغير ذلك، أو أن يحاولوا جرّنا إلى هذه المعضلات التي تُشغل العقل والقلب، وتُتلف الذوق. نحن نؤمن بالله ربنا، ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فنثبت ما أثبتته لنفسه ونفي ما نفاه عن نفسه، ونؤمن أنه صاحب السلطان المطلق في هذا الوجود، وأنا عبيد من عباده الذين ينبغي أن يكونوا في مقام العبودية، بمعنى فقدان الحرية الكاملة معه سبحانه، ثم نبداً في عبادته في واقع حياتنا كلها.

لكن أن ندخل في فلسفات ومعضلات من هذا النوع، فلا شك أن هذا سيفسدنا ويعدنا عن الله، وعن الحقيقة.

التصور الاعتقادي الإسلامي

"ولقد قلنا: إن العبودية لله تتمثل في "التصور الاعتقادي" .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الإسلامي .."

يقول سيد قطب في تحديد هذا الأمر "إنه التصور الاعتقادي الإسلامي الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني، والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه، ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه -غيبه وشهوده- ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها -غيبها وشهودها- ولحقيقة نفسه .. أي لحقيقة الإنسان ذاته .. ثم يُكَيِّف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً .."

تصور ينشأ في الإدراك البشري من خلال تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني .. تعبير بسيط ومعنى بسيط، أي أننا لا ينبغي أن نأخذ تصورنا الاعتقادي -أي لا نأخذ عقيدتنا إلا من هذا المصدر الرباني- عن طريق رسول الله ﷺ ﴿ لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤]، فالرسول ﷺ مهمته أن يوضح ويبين ويشرح .. (أوتيت القرآن ومثله معه) .. ليبين لنا كل الحقائق بشكل واضح، ومن خلال هذا المصدر الرباني نعرف وندرك حقيقة ربنا، وندرك حقيقة الحياة، وندرك حقيقة الكون، وندرك حقيقة الإنسان ..

"تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله -كما بلغها رسول الله ﷺ- تحقيقاً لعبوديته لله وحده في هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله."

فمعنى "لا إله إلا الله منهج حياة" يتمثل في هذا كله، لكي تصطبغ الحياة بهذا الشعور الحي والسهل والبسيط والحرار، الذي يجعلنا فعلاً نعيش بصبغة الله سبحانه وتعالى.

منهج نشأة المجتمع المسلم

القضية الثانية في هذا الفصل؛ "فإذا تقرر أن هذا هو "المجتمع المسلم"، فكيف ينشأ هذا المجتمع؟ وما منهج هذه النشأة؟"

ابتداءً نريد أن نقول: أن المجتمع المسلم شيء آخر غير كل مجتمعات البشرية، وهو غريب عنها تماماً غربة كاملة، مهما تبدى في بعض الأحيان من تشابهه، فهي ليست مشابهة حقيقية، وإنما هي مشابهة عارضة، مشابهة شكلية، ولكن أعماقها ودوافعها وجذورها تختلف تماماً، والمجتمع المسلم كالفرد المسلم.. يعيش غريباً غربة كاملة.. فحينما يعيش في مجتمع الجاهلية يجد نفسه غريباً تماماً. والجاهلية -أيضاً- ترى المجتمع المسلم مجتمعاً غريباً جداً..

"إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله.. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور، ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر.. ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع.."

لا بد أن تنشأ جماعة من الناس تقرر ابتداءً أن عبوديتها كاملة لله، فلا يصلح أن يُنشئ المجتمع المسلم ناس لا يعرفون حقيقة الألوهية، وما هو معنى العبودية، لا بد أن يكون هؤلاء الناس قد قرروا فعلاً اختيار العبودية لله عز وجل وحده في اعتقادهم وتصوراتهم، في عبادتهم وشعائرهم، في نظامهم وشرائعهم.. ولا يكفي هذا.. ولكن لا بد أن تبدأ حياة هذه الجماعة بالفعل في أن تأخذ شكل وروح هذه العبودية..

"ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة.."

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]..

"تُنقِّي ضمائرنا من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله -معه أو من دونه- وتُنقِّي شعائرنا من التوجه بها لأحد غير الله -معه أو من دونه- وتُنقِّي شرائعنا من التلقي عن أحد غير الله -معه أو من دونه.."

هذه القضية يجب أن تكون بارزة وواضحة.. وقد كنت أقرأ بالأمس القريب الادعاء ضد الأستاذ سيد رحمه الله في قضيته، والمدعي يرد على ما جاء في المعالم، ويذكر كثيراً مما جاء في المعالم مما وصم به الأستاذ سيد هذه المجتمعات بالكفر والخروج، وكل القضايا التي نعرفها.. أردت أن أرى المغالطات التي كان يرتكبها الادعاء -عامداً- في تمييع كل ما جاء به الإسلام، وتبجح غريب يقرر أن العدل لم يرسم الإسلام له صورة معينة، فأیما صورة من صور العدل تحققت تصبغ هي الإسلام، كما كانوا يقولون: شريعة العدل شريعة الله، ويتحدث عن معنى العبادة، وعن الشعائر، وعن الشرائع.

مغالطات متبجحة، لكنها للأسف تمر على الشعب، لأن هذا الشعب أصلاً لا يعرف معنى الإسلام الحقيقي، وبالتالي حين يقف مثل هذا الادعاء ليكذب ويغالط ويحرف، ويأتي ببعض النصوص المبتورة عن بعض العلماء والفقهاء ليرصع بها خطبته النكراء.. تجد الناس يتخيلون أن هذا الكلام صحيح، وأن سيد قطب جاء ببهتان عظيم.

هذا الأمر إن جاز لهذه الشعوب، لكنه لا يجوز أن ينخدع به أي مؤمن يعرف الحق، لأننا في تعاملنا مع الجاهلية ومواجهتنا للجاهلية، وفي صدامنا مع الجاهلية سنلتقي بهذه الأكاذيب وهذه الأغاليط.. ومن ثم إن لم نكن مستيقنين من الحق فإن البعض قد يتزلزل ويتشكك، خاصة -كما قلت قبل ذلك- أن لحظات الخوف تعطي للإنسان شرعية البحث عن نجاة ولو بالباطل، فقد يجد أحدنا أن لحظات الخوف هذه تجعله يقبل ذلك المنطق المغلوط لينجو من العذاب ومن التعب.. ولكن هذا لن يغني عنه شيئاً، لأن الحجة قد قامت علينا، ولا يجوز لنا أن نكفر إلا تحت الإكراه، بالقول وليس بالعمل.

"عندئذ -وعندئذ فقط- تكون هذه الجماعة مسلمة.. " حينما تختار العبودية لله، وحينما تنظم حياتها على أساس من هذه العبودية، وحينما تنقي ضمائرنا وشعائرها وشرائعها من التلقي عن غير الله عز وجل..

"عندئذ -وعندئذ فقط- تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك.. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله -على النحو الذي تقدم- فإنهم لا يكونون مسلمين.. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً.. ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام، والتي يقوم عليها المجتمع المسلم -هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله- لم تقم بشطريها.. "

مرة أخرى يكرر الحقيقة التي تقوم على نفس القاعدة، حتى تبدو لنا حقيقة هذه الشهادة بشطريها وهي تظلل حياتنا، وتتخلل كل شيء.. وعجيب بعد ذلك أن يقول الناس أن سيد قطب لم يتعرض للناس، ولم يصفهم بأنهم ليسوا مسلمين.. فهنا كلام شديد الوضوح في هذه القضية، وما معنى قوله إنه إذا لم يقرر الناس أن يخلصوا عبوديتهم لله على ذلك النحو لا يكونون مسلمين.. ماذا يراد منه أن يقول أكثر من ذلك؟ فهذه الجماعة تصحح مسلمة، وذلك المجتمع يكون مسلماً حينما يقوم على هذا التصور الاعتقادي، وعلى هذه الصورة من الشعائر والشرائع كما هو واضح في كلامه -رحمه الله-.

ويتكلم بعد ذلك عن الخطوات التي ينبغي أن تُتخذ لتكوين هذا المجتمع؛ فيقول:

"وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام.. ينبغي أن ينتج الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله -في أي صورة من صورها التي أسلفنا-.. " هذه هي الخطوة الأولى؛ لا يكفي أن يدعي الناس الإسلام.. لا بد أن تخلص ضمائرهم حقيقة من العبودية لغير الله، وأن يدركوا معنى الشرك ومعنى التوحيد، ويدركوا معنى لا إله إلا الله، ويشهدوها بالمعنى الصحيح، ويتخلصوا حقيقةً من العبودية لغير الله..

والأمر الثاني: "وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة.. "

فلا يكفي الاعتقاد البارد المستكن في القلوب.. لا بد أن يتجمع هؤلاء الأفراد في جماعة..

"وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقاداً وعبادة وشرعية، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم.. "

وهذه هي الخطوة الثالثة..

فالخطوة الأولى: أن تتنقى ضمائر الناس والأفراد ابتداءً من العبودية لغير الله.. أي علينا نحن الذين نريد أن نكون مسلمين أن نُخلِّص -ابتداءً- ضمائرنا من شوائب الشرك الظاهر والخفي، وكما قلت: أن الشرك ليس فقط أن تعتقد أن مع الله إلهاً آخر في الخلق، لكن أيضاً إذا لم تصدق بأن الرزق بيد الله وحده، وأن الأجل بيد الله وحده، وأن الضر والنفع بيد الله وحده، وأن الإحياء والإماتة بيد الله وحده، فيصبح هذا شركاً..

فخطوات التكوين لهذا المجتمع المسلم يمر بهذه الخطوات الثلاث:

أولاً: الاهتمام بتخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله بأي صورة من صورها.

ثانياً: أن يجتمع هؤلاء الأفراد الذين تخلصت ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة.

ثالثاً: "وهذه الجماعة التي خلّصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقاداً وعبادة وشريعة، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده.. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله."

وواضح أن الأستاذ سيد رحمه الله يكرر هذه الشهادة ومقتضاها، وكلما جاء مقتضى لها ربطه بها مرة أخرى، لكي يكون هذا الأمر عميقاً وحيّاً وحراراً في نفوس الرواد الذين يكوّنون الجماعة المسلمة.

وكما قلنا: إن الجماعة المسلمة التي جاءت لتقيم هذا المجتمع المسلم لا بد أن يكون أفرادها قد خلصت ضمائرهم حقيقة من العبودية لغير الله، ثم يتجمعون في هذه الجماعة، ثم ينشأ بعد ذلك منها المجتمع المسلم، من خلال الزيادة في العدد، ومن خلال التربية الدائبة والدائمة، لتكوين المجتمع المسلم الذي تتمثل فيه العبودية لله.. بمعنى أن تكون حياة هذه الجماعة تحقيقاً عملياً وشعورياً لهذه الحقيقة المتمثلة في شطري الشهادة؛ وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى، التي أقامت المجتمع المسلم الأول، وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم.. وأي تصور آخر غير هذا هو تصور خاطئ، وتصور عاجز، وتصور لا يمكن أن يؤدي إلى قيام المجتمع الإسلامي، وقد رأينا في واقع الحياة هذا.

وأكبر مثل لهذا هو الجهاد الأفغاني.. فقد رفعوا راية إقامة الأمة المسلمة والخلافة الإسلامية، ولكن ضمائر الأفراد لم تكن قد خلصت للعبودية لله عز وجل، كان كثيرون منهم يحملون التمايم، ويتبركون بالمشايخ، ويتلقون حياتهم كلها من غير الله.. فلذلك ما كان يمكن أن ينجح هذا الأمر..

وهكذا في أي وقت؛ لا بد أن تمضي الخطة كلها بهذا الترتيب الدقيق.. دعوة يستجيب لها أفراد خلصت ضمائرهم لهذا الحق، وخلصت من العبودية لغير الله.. ثم يتجمعون في جماعة وينظمون حياتهم على ضوء هذا الحق.. ثم يتكون المجتمع المسلم من خلال الانتماء والتكاثر داخل هذه الجماعة، حتى يأذن الله لها بإقامة مجتمع ودولة..

"إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله -معه أو من دونه- إلى العبودية لله وحده بلا شريك.."

أي أن الانتقال هذا انتقال كيف وليس عدد، وليس بمجرد التمرد على المجتمع، فالناس يمكنهم أن يتمردوا على المجتمع لسبب قومي.. أو لهدف شخصي.. أو لأي شيء غير العقيدة، فلا يكون لهذا المجتمع صفة الإسلام، إلا إذا كان الانتقال هو الانتقال من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك.. ثم تقرر هذه المجموعة أن تقييم نظام حياتها على أساس هذه العبودية.. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ومواجه له، بعقيدة جديدة، ونظام للحياة جديد، يقوم على أساس هذه العقيدة، وتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..

ويقول: "وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه، وإن كانت السنة قد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها، سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه -وهو أفراد أو مجموعات- أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً، وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام، إلى محمد عليه الصلاة والسلام، بغير استثناء."

وهذا الكلام حتى لو علمته الجاهلية والمخططون فهو لن يزيد من عداوتهم للإسلام، فهم دائماً في أقصى درجة من العداوة للإسلام، وهم في أكثر أوقاتهم ضيقاً بهذا الدين واستعداداً لضرب كل نبتة فيه حتى لا يكون له وجود ولا يقوم له نظام.. فهذه الحقيقة لا بد أن تكون معروفة لدينا.. وأن نعلن بها لهم، فنقول لهم: أنه ليس هناك بيننا وبينكم مهادنة، لأن طبيعة الأمرين لا يلتقيان أبداً، وأن المعركة معركة حياة أو موت، إما نحن أو أنتم، ونحن نريد أن نموت في سبيل الله..

"وطبيعي أن المجتمع الجديد لا ينشأ، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم.."

وهذا أمر بديهي.. إذ لن ينزاح المجتمع الجاهلي، ولن تتقوض أركان الجاهلية بمجرد البلاغ والبيان، ولكن لا بد أن يتسلح المجتمع المسلم بكل أسباب القوة.. وأسباب القوة ليست فقط -كما يتصور الناس- القوة المادية، وإنما يسبقها..

"قوة الاعتقاد والتصوير، وقوة الخلق والبناء النفسي، وقوة التنظيم والبناء الجماعي، وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه، أو على الأقل يصمد له!"

وأيضاً قوة إدراك المعركة، ومعرفتها ومتابعتها.. فهذه أيضاً من أسباب القوة التي لا يجوز للجماعة المسلمة أن تغفلها. فلا ينبغي أن تغفل عن حقيقة الكيد، ولا عن صورته، ولا عن دوافعه، ولا عن أشكال الصراع التي تتغير وتتلون يوماً بعد يوم.

كذلك قوة المستوى العلمي والاجتماعي.. فلا بد للجماعة المسلمة أن تتسلح بالوجاهة التي تجعل الجاهلية تحترمها وتتلقى منها، ولا بد أن يبحث الدعاة في كل مجتمع عن أسباب الوجاهة المشروعة، والتي لا تتناقض مع عقيدتهم ولا أخلاقهم، فيتسلحون بها.. وهذا كان واضحاً في اختيار الله عز وجل لرسله الكرام، فكان يسلمهم دائماً بما يتفوقون به على الجاهلية، وهذا واضح في موسى -عليه السلام-، وفي عيسى -عليه السلام-، وفي محمد ﷺ.

فالتسلح بالقوة العلمية والاجتماعية، والتي يراها المجتمع البشري الآن هي سمات الوجاهة، لا ينبغي أن نغفلها، لأن المجتمع الجاهلي يعتبر أن العلوم والأخذ بها هو نوع من الوجاهة يعطي لصاحبه مكاناً عالياً في المجتمع، بحيث يستجاب له ويسمع منه.. فهذا ينبغي ألا تضعه الجماعة المسلمة.. ليس بحثاً عن هذا الأمر في ذاته.. وإنما كسب من الأسباب التي ينبغي أن نأخذ بها. ونحن لا نقيّم بهذه الوجاهة الأشخاص في داخل الجماعة، ولكن نحن نتسلح به في مواجهة الجاهلية، فالإيمان والتقوى هو ميزان التفاضل داخل الجماعة المسلمة. ولكنهم في الجاهلية لا يتفاضلون إلا بالشهادات والمناصب.. فلا يجوز أن نضيع الفرصة على الناس أن يسمعو منا بسبب عدم حيازتنا لأسباب الوجاهة المطلوبة، لكن على ألا يكون هذا له قيمة فيما بيننا.. لأن القيمة العليا بيننا ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].. فقد يكون أحد إخواننا يعمل عاملاً أو كناساً.. ففي تقييمنا داخل الجماعة قد يكون أفضل من الآخرين لأنه أكثر تقوى.. فهذه الوجاهة ليست قيمة داخل الجماعة، فالجماعة لها مقاييسها، ولكننا نتكلم عن القوة التي نواجه بها المجتمع الجاهلي لتتغلب عليه ونكون أقوى منه..

وهناك أيضاً قوة التخطيط، والسلوك العملي داخل الجماعة.. فداخل الجماعة لا بد أن يكون هناك التخطيط الذي يجعلنا قادرين على أن نسبق الجاهلية دائماً، ولا نتركها تأخذنا على غرة، ولا نتخذنا، ولا تُسخرنا لها، لأن الجاهلية في بعض الأحيان تُسخر الجماعة المسلمة لمصلحتها.. فينبغي أن نكون على وعي بأن نكون على أعلى درجة من التخطيط بحيث لا نُستغفل ولا نُسخر ولا نفاجأ ونؤخذ على غرة..

كل هذه القوى ضرورية لكي نكون أقوى من المجتمع الجاهلي القديم، لكي ينشأ على أنقاضه المجتمع الإسلامي الوليد.

منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية

الموضوع الثالث: هو موقف الجماعة المسلمة وموقف المسلم من المجتمعات الأخرى الموجودة على وجه الأرض.

وإذا كنا قد قلنا: أن المجتمع الوليد ينبغي أن يزيح المجتمع الجاهلي، ويتعالى على ضغطه، ويتسلح بكل أنواع القوى.. فيجب أن نعرف ما هو المجتمع الجاهلي؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته؟

"إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم!.." قضية بسيطة.. فإذا كنا نعرف المجتمع المسلم بأنه: المجتمع الذي يدين بالعبودية لله عز وجل وحده في الاعتقاد والشعائر وفي الشرائع.. يصبح أي مجتمع لا يفعل ذلك هو مجتمع جاهلي، ولا نحتاج إلى الدخول في قضايا جدلية حول ذلك..

"وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية.. وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار "المجتمع الجاهلي" جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً!!"

وهذا حكم قاتل للجاهلية. ولا شك أن مما أثار الجاهلية على الأستاذ سيد رحمه الله هو هذا التقرير الحاسم.. فحينما يقرر أن المجتمعات القائمة اليوم في الأرض كلها جاهلية؛ فيدخل في ذلك المجتمعات الشيعية، واليهودية، والنصرانية، والوثنية، ويدخل أيضاً في هذا المجتمع الجاهلي كل المجتمعات التي تزعم أنها مسلمة.. فلا يبقى بعد ذلك في الأرض إسلام، ولا يبقى في الأرض مجتمع مسلم.. فكل المجتمع البشري الآن على وجه الأرض كلها هو مجتمع جاهلي..

وواضح وبلا شك لماذا يكون المجتمع الشيعي مجتمعاً جاهلياً.. مجتمع يلحد، فلا يعترف ابتداءً بالله، ويفرض الاعتراف بعقيدة لا إله إلا الله، والحياة في نظره مادة، فهو ينكر كل ألوهية ويعترف بالمادة فقط، ثم أن هذا المجتمع الشيعي لا يقدم شعائر لله لأنه لا يعترف بالله، وبالتالي فهو لا يتلقى شرائعه من الله، وهو يمسح الإنسان ويفقده إنسانيته حينما يعتبر كل متطلبات الإنسان هي متطلبات الحيوان من الأكل والشرب والجنس فقط، فهذا المجتمع هو أدنى مجتمعات الجاهلية قاطبة.

والمجتمعات الوثنية مازالت قائمة في كثير من الأرض؛ في الهند وفي اليابان وفي الفلبين وفي أفريقيا وفي غيرها.. وهي مجتمعات كل ما فيها ضلال؛ في التصور الاعتقادي، أو في تقديمها للشعائر لآلهة مدعاة يتبعونها، سواء أصناماً أو شمساً أو قمراً أو قبيلة أو زعيماً، وبالتالي فهي لا تتلقى شرائعها إلا من شيخ القبيلة أو ممن يقرون له بذلك.

أما المجتمعات اليهودية والنصرانية؛ فمعلوم أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم قالوا عزير بن الله، وقالوا المسيح بن الله، وأيضاً عندهم من الطقوس التي اخترعوها والتي ما أنزل الله بها من سلطان، فهم جميعاً خارجون عن دائرة الإسلام ببساطة ووضوح.

وأخيراً.. تدخل في إطار هذا المجتمع الجاهلي كل المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة.. وهذه وإن كانت تقر بأن الله واحد، وبأن محمداً ﷺ هو الرسول، وأن القرآن هو كتاب الله، ولكنها في الحقيقة يدخل في عقائدها كثير من التحريفات، مثل الذين يعتقدون في الأولياء والأضرحة، والذين يعتقدون أن أمر الرزق والأجل بغير يد الله. ولكن الصورة الأكثر وضوحاً هو أنهم لا يتلقون الشرائع من الله، بل ينصبون طواغيت يحكمون لهم ويشرعون لهم من دون الله، وهذا كله كما علمنا شرك أكبر يخرج الناس من الإسلام، وبالتالي فإن هذه المجتمعات التي تزعم أنها مسلمة هي أيضاً تندرج في ركاب المجتمع الجاهلي.

"وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها "مسلمة"!

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها. فهي -وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله- تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها.. وكل مقومات حياتها تقريباً!

والله سبحانه يقول عن الحاكمين: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ..

ويقول عن المحكومين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥-٦٠] ..

كما إنه -سبحانه- قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده، واتخاذ الأخبار والرهبان أرباباً من دونه، لمجرد أن جعلوا للأخبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم "مسلمون" لناس منهم! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء. فهذه كتلك -خروج من العبودية لله وحده- فهي خروج من دين الله، ومن شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة "علمانيته" وعدم علاقته بالدين أصلاً، وبعضها يعلن أنه "يحترم الدين" ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً، ويقول: إنه ينكر "الغيبية" ويقيم نظامه على "العلمية" باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال، وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله! وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده..

وإذا تعين هذا، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة:

إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره.

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافئات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها.. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة.. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده. وهي من ثم تلتقي -مع سائر المجتمعات الأخرى- في صفة واحدة.. صفة "الجاهلية" ..

فكلها تلتقي في عدم توحيدها لله عز وجل. وحينما تكون القضية بارزة واضحة هكذا؛ سواء فيما بيننا وبين أنفسنا، أو في صراعنا مع الجاهلية، أو في مواجهتنا لها.. لا بد أن تكون القضية محسومة هكذا.. لأننا نؤمن بذلك، ولسنا مطالبين دائماً أن ننعق الجاهلية بآرائنا، ولا بعقيدتنا.. نحن نريد فقط أن نُقيم الحجة. وكما اتفقنا أن الحجة تقوم بمجرد وجودها، فهي لا تعتمد على اقتناع الناس بها. ونحن نقول للناس ما عندنا من دليل، وهو دليل بسيط واضح، ثم ليؤمنوا أو لا يؤمنوا ﴿ فَمَنْ شَاءَ

٤ يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ في الجزء السابع من الظلال.

فَلْيُؤْمِنُ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴿ [الكهف: ٢٩] .. لكن لا ينبغي لأحد منا أن يشعر أنه ضعيف، أو أنه ليس على الحق تماماً لأن الكثرة التي أمامه لا تريد أن تقتنع بما يقول.. فهذا مقياس شديد البطلان كما حكى لنا رسول الله ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) .. فالمسألة كلها لا ترتبط بالكم، بعدد الرؤوس التي تقتنع، وإنما ترتبط بمدى ما أدتته أنت في تبليغك لرسالة الله عز وجل، فإذا أدت ما عليك فلا عليك بعد ذلك إن آمن الناس كلهم أو كفروا.. وهذا ما يجعلني دائماً أقول: أننا لسنا في حاجة إلى الاستكثار من الأدلة، والتعب في الإحاطة بالقضية بكافة أركانها لكي نخاطب الناس..، لسنا ملزمين بهذا، نحن ملزمون فقط بأن نبين لهم الحقيقة بأبسط أسلوب وبأوضح حجة، لكن ليس بالضرورة أن نخاطب الفلاسفة بفلسفتهم، ولا العلماء بعلومهم، ولا كل طائفة بما تحسن.. نحن نحسن شيئاً واحداً؛ أن نقول الحقيقة، وأن نقولها بأدلتها الواضحة البسيطة كما عرضها القرآن الكريم، وكما عرضها رسول الله ﷺ، ثم نقول للناس بعدها ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] .. ﴿ ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١] .. أما أن تحاول الجاهلية أن تستدرجنا إلى مأزق العلمية والمنهج العلمي، وإلى الاستكثار من الأدلة التفصيلية، وإلى الإتيان لها بمنهج تقنعها أن الاقتصاد الإسلامي أحسن والسياسي أحسن.. فهذا استدراج، وهذه مناورة للإحراج لا يجب أن يستجيب لها المؤمنون أبداً.. وإلا يكونوا قد فقدوا الطريق ابتداءً حينما يستجيبون لهذه المناورة.. ثم أنك لا تريد منهم شيئاً، وإنما تريد أن تبلغهم، ثم يفعلون هم ما يشاءون، فيستجيبون لك، أو يعارضونك، أو يقتلونك.. فأنت قد قلت كلمتك، وتبغى بها وجه الله، ثم يفعل الله بك ما يشاء؛ إذا شاء أن يسلط عليك أعداءك فليسلط، ستموت شهيداً، وإن شاء أن يصرفهم عنك دون إيمان صرفهم، وإن شاء أن يؤمنوا جميعاً كما آمن قوم يونس -عليه السلام- فليكن ذلك.. لكنك أنت لا تتخير النتيجة، لا سابقاً ولا لاحقاً.. أنت عليك أن تبلغ، وهذه وظيفتك، أما ما يحدث لك فهذا ليس شأنك، إنه شأن خالقك سبحانه وتعالى، يفعل بك ما يشاء، بهذا لا نكون حريصين كل الحرص على أن نقنع الآخرين.. نحن علينا أن نبلغ الآخرين، لكن إقناعهم مسألة أخرى، وكما قال الله لرسوله ﷺ ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] .. ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٥-٣٦] ..

لا بد أن يكون هذا اليقين عندنا، وهذا الاعتزاز عندنا، وأن نكون على هذه البساطة في التعامل مع الحقيقة ومع المجتمعات بهذه الصورة الواضحة.

منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية

وأخيراً تأتي إلى القضية الرابعة والأخيرة والخطيرة كما يقول؛ وهي:

"منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري كله.. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان.. وهنا ينفعنا ما قرناه في الفقرة الأولى عن "طبيعة المجتمع المسلم"، وقيامه على العبودية لله وحده في أمره كله.

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال:

ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة؟ أم هو الواقع البشري أيًا كان؟.."

القضية الرابعة هي: ما هو منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري؟

نحن قد واجهنا واقعاً بشرياً.. ووجدناه واقعاً يخضع للطواغيت، يشرع له ناس منهم، ويعبدون الناس لهم، ويحددون لهم القيم والموازن والأحكام والشرائع والأخلاق والقيم.. فما الذي نفعله في مواجهة هذه المجتمعات؟

السؤال الأول الذي ينبغي أن نسأله هو: هل هذه المجتمعات التي تتلقى من غير الله، وتعيش حياتها بعيدة عن منهج الله، وتتلقى شرائع حياتها من غير الله عز وجل.. حرة في أن تختار منهجها، وأن تشرع لنفسها، وأن تقرر حقائق حياتها هكذا؟ أم أنه ينبغي أن تعود لخالقها تستمد منه حياتها وشرائعها؟

ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة، أم هو الواقع البشري أيًا كان؟

"إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلثم فيها ولا يتردد لحظة.. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة.. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول، لا تقوم ولا تؤدي إلا أن يكون هذا هو الأصل.. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يُعترف بهذا الأصل، ثم يُتبع اتباعاً كاملاً بلا تلثم ولا تردد: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]"

إذن.. حينما نواجه الواقع البشري نرى: إن كان واقعاً يتلقى من الله ومن رسوله، والعبودية فيه لله وحده دون شريك، وحياته مستمدة من سنة رسول الله ﷺ فهذا مجتمع مسلم، موقفنا منه الولاء والحب والعلاقة الطيبة والتعاون على البر والتقوى.

أما إذا كان الواقع -كما هو مشهود في المجتمع البشري كله كما قرناه في الفقرة السابقة- فإن موقف الإسلام منه هو رفض الاعتراف بإسلاميته.

إذن موقفنا هو أن الأصل الذي تقوم عليه الحياة البشرية وترجع إليه هو دين الله ومنهجه في الحياة.. لأن الحق المقرر المنبثق والقائم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هو أن تكون العبودية لله وحده، وأن يكون التلقي عن رسول الله ﷺ.

"ثم إن الإسلام يسأل:

﴿ أَلَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]

ويجيب:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]..

﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]..

فهذا أمر طبيعي حينما يكون السؤال هكذا.. فلا يكون هناك إجابة إلا هذا.. ولا يمكن لإنسان لديه مسحة من عقل عندما يُسأل ﴿ أَلَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ﴾.. أن يقول إنه أعلم من الله.. فلا يمكن أن يكون المخلوق أعلم من الخالق، ولا أقدر من الخالق، ولا أحكم من الخالق، ولا أرحم من الخالق، ولا أقوى ولا أكثر عذاباً أبداً.. الله جل وعلا -في علاه- هو الذي ليس كمثلته شيء، وله كل الكمالات، وهو الوجود المطلق في كل شيء.. فليس هناك في تصور أي إنسان عاقل أن يقارن بين الله وبين خلقه.

فإذا كان الأمر كذلك فمن الذي يُرجع إليه؟

وبذلك يكون دين الله ومنهجه في الحياة هو الإجابة الطبيعية في تحديد تعاملنا مع الواقع البشري، والذي يعلم ويخلق ويرزق هو الذي يحكم، ودينه.. الذي هو منهجه للحياة.. هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة.

أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتنحرف، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون، والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً.

هذا الدين وهذا المنهج ليس غامضاً، وليس مائعاً.. إنه دين جلي واضح ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].. ليس كتاباً غامضاً في نصوصه، ولا معقداً في تعبيراته، وإنما هو كتاب واضح، ودين ثابت محدد دقيق.. فهو محدد بشطر الشهادة الثاني محمد رسول الله، فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص.. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع نص، وإن لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد وفق أصول مقررّة في منهج الله، لا وفق الأهواء والرغبات ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].. فهذا الدين ليس لعبة في يد الناس.. يقول فيه كل إنسان ما يريد، ويقرر حقائق في هذا الدين كما يريد، ويحاكم الناس إلى ما رأى، ثم يقول أنا على الحق وغيري على الباطل.. ليس هذا شأن هذا الدين، لأن هذا الدين أوضح وأجلّ من أن يعطي هذه الفرصة لأهواء الناس.. فهو ليس ديناً كدين الكنيسة.. عبارة عن أغاليط ومعتقدات باطلة، وعقائد محرّفة، وأساليب معقدة، وتعطيل للفكر والعقل.. ليس هكذا الإسلام.. وليس كذلك كدين اليهودية المليء بالتشويه والتحريف والكلام في الله وفي أنبيائه بالباطل والسوء.. إنما هو دين شديد الدقة، وشديد الصفاء والنقاء، وشديد الوضوح.. فالرجوع إليه وجعله مرجعاً هو الحق الذي لا حق غيره، والله عز وجل يقول ﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧].. ويقول ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس: ٣٢].. فالقضية واضحة، وليس لأي إنسان أن يأتي ليقول: أنا أقول في دين الله كما أشاء، ثم على الناس أن يتبعوه، أو أن يقولوا له: إذا أنت مجتهد ونحن مجتهدون!! هناك الأصول لا اجتهاد فيها.. فالأصول مقررّة واضحة محكمة.. قد نختلف في الفرعيات، ولكن كل الأصول في العقائد وفي التكاليف هي أمور مستفيض العلم بها، لا يجوز الجهل بها، ولا يجوز العذر بالجهل فيها على الإطلاق.

والاجتهاد في الإسلام ليس اجتهاداً حراً طليقاً من القيود، إنما هو مقيد بأصول معتبرة، ومقيد بروح الشريعة، وبمقاصد الشريعة، وبقواعد الشريعة، ومقيد بالأدلة التي يعتمد عليها المجتهد بعد القرآن والسنة؛ من الإجماع، والقياس، والمصالح المرسلة، والاستحسان، ورأي الصحابي، إلى غير ذلك من مصادر الاجتهاد.. فهناك أصول وقواعد تحكم المجتهد ولا تجعله ينفلت بلا قيود.. ثم هو بعد ذلك ليس وحده هو الذي يقرر إن كان اجتهاده صحيحاً أم لا.. وإنما مجموع علماء الأمة من أهل الحل والعقد ومن العلماء لهم أن يعقبوا على قوله ويردوه إلى الصواب إن ضل ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]

والإسلام لا يعطي فرصة لأن يحدث كما حدث في أوروبا من الحكم المقدس، أو الشيوقراطية؛ التي كانوا يدعون فيها أن لهم حقاً إلهياً، ومن حقهم أن يقولوا ما يشاءون، وأن يُسمع لهم، ويُحكم بكلامهم.. أو كما حدث من الكنيسة التي كانت تعتبر نفسها وكيلاً عن الرب، تفعل ما تشاء، وتحل ما تشاء، وتحرم ما تشاء.

فالإسلام لم يعط البشرية هذه الفرصة أبداً، وإنما كان حاسماً جداً في أن الحكم لله، وأن الكتاب والسنة هما المرجعان اللذان يُرجع إليهما، وأنه لا يجوز لأحد أن يتقول على الله بغير علم بهذه الأمور، أو أن يكون غير ملتزم بالمقررات والأصول والضوابط. وهناك من يستعمل تعبير "الدين للواقع" للتفلت من شرع الله.. يقول الأستاذ سيد:

"إن كلمة "الدين للواقع" يساء فهمها، ويساء استخدامها كذلك. نعم إن هذا الدين للواقع. ولكن أي واقع!"

الدين الذي جاء من عند الله ليس خادماً للواقع، وإنما جاء ليغيّر هذا الواقع، ويهيمن عليه، ويصححه وينظمه..

"إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه، وفق منهجه، منطبقاً على الفطرة البشرية في سوائها، ومحققاً للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها. هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق، والذي يعلم من خلق:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]..

والدين لا يواجه الواقع أيّاً كان ليقرّه ويبحث له عن سند منه، وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه، فيقر منه ما يقر، ويلغي منه ما يلغي، ويُنشئ واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه، وواقع الذي ينشئه هو الواقع. وهذا هو المعنى بأن الإسلام: "دين للواقع".. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح!"

ونجد الآن أن من يزعمون الإسلام، وحتى بعض علمائهم وبعض حركاتهم يريدون أن يصوغوا الإسلام بحيث يتفق مع الواقع، وأن يبحثوا عن شرعية هذه المجتمعات وما فيها من قوانين، وما فيها من عادات وتقاليد، ليقولوا إنها لا تخرج عن الإسلام وعمّا أمر به الله. ورأينا العلماء الذين اجتمعوا في الأزهر وقالوا إن القانون أو الدستور أو الحكومة لا ترفض لله حكماً، وحينما يقولون ذلك فهذه شهادة علماء كبار يشهدون أن هذا المجتمع بحكومته وبواقعه لا يرفض لله حكماً.. ويأتي أيضاً مشايخ الأزهر وعلى رأسهم شيخ الأزهر ليقولوا إن الدستور دستور إسلامي وإن كان فيه بعض الأشياء البسيطة جداً لا تبلغ ٥ % منه تحتاج تعديلاً، أما ٩٥ % فهو يتمشى تماماً مع الإسلام..

ونحن نقول: لو كان ١٠٠% يتمشى مع الإسلام، ولكن مصدره ليس هو العبودية لله فهو دستور مرفوض، لا بد أن نتلقى الدستور لأنه من عند الله، وليس لأن الحكومة أو لأن بشرًا من البشر قرر صلاحيته.

فإذا كان الواقع الموجود، بكل ما فيه من رذائل ومحرمات ومخالفات، يقال عنه أنه مجتمع مسلم لا ينقصه شيء، إذاً بعض الناس يريد أن يطوع الدين ليعطي شرعية لهذا المجتمع فهذا شأنه وعليه وزره ودين الله بريء من ذلك السفه كله، وما أكثر السفهاء في هذا الزمن. وقد قال لي أحد الناس قريباً إن أحد "العلماء" ذهب إلى مدرسة بنات فقال لهم وقد سألوهم عن النقاب: إن المرأة التي تنتقب كافرة لأنها شرعت غير شرع الله، لأن جمهور الفقهاء يقول إن وجهها ليس بعورة وهي غطت وجهها فهي تكون كافرة، والرجل الملتحي كافر لأنه خالف أمر ولي الأمر الذي يريد تأمين المجتمع، وهو يربي لحيته ويكون مع التطرف والإرهاب.. فهذا عالم من علماء الأزهر.. وقال وقد سألوهم عن البنطلون للمرأة: ليس فيه شيء أبداً!! وهم قد بدأوا يجتثون المظاهر الإسلامية ويعرضون بها، ويسخرون منها، فنجد أحدهم يُسأل: هل المرأة السافرة المتبرجة التي تخرج متبرجة دائماً لا ترى في ذلك إثماً هل صلاتها مقبولة؟ فيقول: نعم صلاتها مقبولة ما دامت إذا جاءت الصلاة تلبس ملابس الصلاة، وهكذا تُطّوع الأمور كلها لكي تصبح متمشية مع الواقع.

فالدين للواقع يقصدون به: أن الدين جاء ليقر ويبحث عن مبررات لهذا الواقع. ونحن نقول إن الدين جاء لينشئ واقعاً جديداً، ولين هذا الواقع ليقر ما يقر، ويلغي ما يلغي، أو يلغيه كله وينشئ واقعاً جديداً حسب ما يشاء..

"ولعله يثار هنا سؤال:

"أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم؟"

ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويجب عليه:

﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ﴾ ؟ [البقرة: ١٤٠]

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ! [البقرة: ٢١٦].

وهذا السؤال قد يصح أن يرد على الذهن في حالة واحدة؛ إذا كان الله لم ينزل شرعاً على العباد.. فلهم أن يقولوا: إذن نضع نحن شرعاً، ونجتهد في أن نبحت عن مصلحتنا، ونضع الشرع الذي نهتدي إليه باجتهادنا.

أما حينما ينزل الله كتباً، وفيها شرائعه.. فكيف يتسنى لإنسان عاقل يدّعي أنه يعترف بالله أن يسأل هذا السؤال: ألسنا نحن أعلم بمصلحتنا؟ فلا شك أن الإجابة واضحة: أن الله يعلم وأنهم لا يعلمون. والعجيب أن الإنسان يذهب إلى المتخصصين ليستفتيهم في أمور حياته، ثم يدع الله الذي هو مالك الملك، وأعلم العالمين، لا يتلقى منه الشرع، هذا انحراف، وهو انحراف مقصود وليس عن جهل، وليس عن غفلة، فهم ليسوا غافلين أن الله أعلم بمصلحتهم، وليسوا غافلين أن الله إذا قرر منهجاً فسيكون منهجاً أفضل.. ولكنهم لا يريدون منهج الله.. فيقولون: دعونا نحن نضع نصوص شرائعنا بمعرفتنا، كما حاولوا

استخدام حديث رسول الله ﷺ حينما قال (أنتم أعلم بأمر دنياكم)^٦ فأخذوه حجة يحتجون بها بعيداً عن سبب ورود الحديث ومجاليه، وبعيداً عن ثوابت الإسلام وقواعده الأولى..

"إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله، كما أنزله الله، وكما بلغه عنه رسول الله.. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم، فهم.. أولاً: "واهمون" فيما بدا لهم.

﴿ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ [النجم: ٢٣-٢٥]"

هم واهمون.. لأن ركائز العلم الإنساني هي الظن والهوى والتقليد والجهل وهي جزء يسير من العلم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧].. فالعلم البشري كله هو علم ظاهر، ونحن لا نعرف الكُنه أبداً، ونحن نحكي توصيف العلم البشري، لكن لا ندخل في كُنه الأشياء، ولا نعرف للآن ما هي الذرة؟ ولماذا كانت هكذا؟ ولماذا الماء من هيدروجين وأكسجين؟ ولماذا كان ذرتين وذرة؟ لا نستطيع أن نقول شيئاً عن هذا، فيسير من العلم هو ظاهر العلم، أما الباقي فهو الظن والتقليد والهوى والجهل، وهي ركائز الفكر الإنساني، لذلك رحمتنا الله عز وجل بأن أنزل لنا كتاباً ورسلاً لكي يكفينا هذه "المطبات" التي تبعدنا عن المصلحة التي نريد أن نحظى بها. فهذه الركائز لا تؤدي بنا إلى المصلحة. ورأينا على مدى التاريخ حينما استقل العقل البشري بعيداً عن هدى الله كيف انحرفت حياة الإنسان، وكيف شقيت حياته، وكيف ضلت، وكيف تسفلت وانحطت بصورة رهيبية جداً. كما رأينا أنهم كلما رجعوا إلى هدى الله انتعشوا كما ينتعش النبات حينما ينزل عليه القطر، فيحيون من جديد، وترتفع حياتهم.. كما رأينا في هؤلاء العرب الأجلاف الذين كانوا في الجزيرة العربية، عندما جاء الإسلام جعلهم أساتذة العالم، وجعلهم أنظف وأرقى وأكرم شعوب العالم. فهكذا إذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم فهم أولاً واهمون فيما بدا لهم، لأن ركائز العلم الإنساني ركائز غير مضمونة على الإطلاق.. "وهم.. ثانياً: "كافرون".. فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين!"

فالقضية إذن لها شقان:

شق من ناحية الواقع: أن هؤلاء واهمون، لأن العقل الإنساني لم يستطع في يوم من الأيام أن يضع لنفسه منهجاً. والثاني: من ناحية موقفهم وحكمهم؛ أنهم كافرون، لأنهم تجرأوا للحظة واحدة أن يقولوا إنهم أعلم من الله عز وجل، أو يدعوا أن المصلحة فيما يرون وليس فيما يرى الله. وهذا أمر لا يمكن أن يتصف صاحبه بالإيمان، ولا يمكن أن يكون من أهل هذا الدين.

٦ رواه مسلم من حديث أنس -رضي الله عنه-.